المملكة الصغرى

خطاب الانسة ادال صباغه في حفلة جمعية يد المساعدة

لما اعلن الدستور في المملكة العثمانية منذ سنتين قامت الخطباء في المحافل تعلن سرورها واخذت الشعراء تنظم القصائد مبدية حبورها وارتفعت اصوات الاقوام بالاناشيد مهللة مرحبة لان انقلاباً عظيماً حدث في سماء تركية

بيد ان هناك ممالك اخرى نحن عائشون في ظلالها خاضعون لحركاتها نحسُّ بكل ما يطرأ عليها من بؤس ونعيم وشقاء وهناء بعضها لا يزال راسفاً في قيود الاستبداد وبعضها طلعت عليه شمس الدستور والحرية وبعضها تكاد تلك الشمس تلقي انوارها عليه ومع ذلك ارانا لا نعير هذه الممالك اهمية كبيرة ولا نسعى بتحريرها لا يزال مستعبداً منها وتهنئة ما تحرر مع ان تلك الممالك اقرب الينا جداً من المملكة التي تظللنا بنودها وتحمينا جنودها

تكادون يا سادتي ويا سيداتي تتهمونني بخيانة الوطن والكفران بنعم دولتنا العلية متى سمعتم كلامي هذا ولكن عجبكم يبطل واستغرابكم يزول متى فهمتم ان الممالك التي اعنيها هي التي لا نجد واحداً منا يابى الخضوع لنير واحدة منها فتلك الممالك ان هي الا العائلات لان كل عائلة هي بالحقيقة مملكة وكل رجل وامرأة ملك ومملكة فيها وكل ابن او ابنة هما من رعاياها الجارية عليهم احكامها

لا تستغربوا كلامي هذا فكل بيت هو مملكة تستلزم سياستها وادارتها حكمة ودراية لا تنقصان عن الحكمة والدراية اللتين تستلزمهما ادارة احدى الممالك العالمية بل ان حسن سياسة هذه الممالك الصغيرة هو الطريقة الوحيدة المؤدية الى حسن انتظام تلك الممالك الكبيرة

فالممالك الكبرى الراقية الفائقة في تمدنها وعمرانها هي التي بلغت فيها العائلات درجة سامية من الرقي الادبي والمعنوي وكل مملكة مهما كانت عظيمة وقوية ولا يكون اساس عظمتها وقوتها حسن سياسة العائلة واتقان التربية الافرادية فيها يكون مصيرها عاجلاً او آجلاً الى الاضمحلال والزوال ابحثوا عن سر عظمة الممالك الانكلوسكسونية تجدوها منحصرة في حسن تربية افراد تلك الامم وحسن السياسة في عيالها ابحثوا عن اسباب سقوط الممالك المندثرة قديماً وحديثاً تجدوها منحصرة في فساد تربية افراد تلك الامم وعدم انتظام مالكها الصغيرة اذاً فسياسة العائلة لا تنقص اهمية عن سياسة الممالك الكبرى رُبَّات الجنود الوافرة والاساطيل الضخمة

هذه هي حقيقة راهنة يا سادتي وعلى حسن فهمنا اياها وسيرنا بموجبها يتوقف فلاحنا وارتقاؤنا

كان شكل حكومة هذه المملكة الصغيرة او العائلة في الزمن السالف استبدادياً محضاً فكان الرجل يتصرف بامرأته وبنيه تصرفه ببعض سلعه المعروضة للتجارة او ببعض امواله الموروثة

ولا ارجع بكم الى الكلام عن زمن المصريين والفنيقيين ولا الى ازمنة العصور الوسطى فليس من شأني طرق هذا الموضوع من وجهته التاريخية لان ذلك يقتضي وقتاً طويلاً وابحاثاً مستفيضة ولكنني اكتفي بتذكيركم بما كانت عليه حال العائلة عندنا منذ عهد غير بعيد وبما لا تزال عليه حتى الان في بعض جهات بلادنا. فقد كان الرجل هو السيد المطلق يتصرف في بيته تصرف عبد الحميد في بلاطه يأمر وينهي وما من مانع ولا زاجر طوراً يرفع امرأته الى اوج السعادة والنعم وتارة يدلها الى اسفل دركات الحطة والامتهان حيناً يرضى على احد بنيه فيخوله اسنى النعم واسناها وحيناً يغضب عليه فينزل به اشد العقوبات واقساها وكل ذلك لمجرد خاطر يمر في ذهنه او تصور يطرأ على فكره وكان ولا يزال حتى الآن في بعض الانحاء يخجل ان يذكر المرأة الا تلميحاً فيقول عنها اهل البيت او الجماعة واحياناً يقرن ذكرها ببعض الفاظ تحتبرية كقوله امرأتي اجل شأنك كان ذكرها شائن

أما الآن فنحمد الله لان بانتشار العلم وازدياد التنور في بلادنا قد بدأ يزول هذا الازدراء والامتهان

واسترجعت المرأة مركزها في العائلة من الاعتبار والاحترام حتى انها عند الطبقة الراقية من ابناء قومنا قد حلت مركزها الحقيق بها وصار لها في ادارة شؤون بيتها راي مسموع وكلمة نافذة واصبحت استشارتها سنة رعيمة في الامور المتوقف عليها عمران البيت ونجاحه

ففي مثل هذه البيوت اصبحت العائلة مملكة دستورية حقيقية الرجل والمرأة ملكاها يسوسانها بحسب قواعد الشورى ويجريان فيها على مقتضيات القانون الالهي والطبيعي هذه هي الحالة التي ترى عليها العائلات في البلاد الاوربية والاميركية الراقية وهذه هي الحالة التي نؤمل ان نصل الى مثلها في بلادنا اذا ظللنا سائرين على خطة الارتقاء فلا نجاح يؤمل لعائلة ما لم يكن هذا الاساس اساسها وهذه الخطة خطتها ولا يثبت بيت ما اذا لم يسر رئيساه على خطة التعاون والتساوي في جميع امورها ولا يصلح ان يستبد الرجل بشؤون

العائلة ولا ان تستبد المرأة بل يجب ان يعرف كل منهما ما عليه من الواجبات للعائلة فيقوم بها وان تعرف المرأة ما عليها من الفروض فتقضيها واما اذا استبد الرجل ببعض الشؤون فان المرأة تستبد ايضاً بالشؤون الاخرى فيكون مصير البيت حينئذ الى الخراب والبوار

ارتفعت اصوات خطبائنا وجادت اقلام كتابنا بانتقاد ما يظهر من الحكومة من الاستبداد واساءة التصرف في بعض اعمالها ولكن العائلات هذه الحكومات الصغرى قلما سمعت للخطباء ولا للجرائد انتقاداً على ما يجري فيها من ضروب الاستبداد ومن انواع سوء التصرف مع ان هذه هي الاساس لتلك ومن العجيب ان يهمل قوم امر الاساس و يهتموا بالجدران والسقف

مصائب الحكومة العمومية تظهر لكل فرد لانها كبيرة واضحة واما مصائب الحكومات الصغيرة الخصوصية التي تتألف منها الحكومة العمومية فلا تظهر لكل فرد لانها غامضة جزئية ومن الواجب النظر اليها قبل النظر الى تلك والتنبيه الى اصلاحها مثل اصلاح تلك ولكنني ارى ابناء قومنا غافلين عن هذا الموضوع الجوهري ومهتمين بكل امر سواه ومن الخطاء ترك الجوهر والتمسك بالعرض ومن الضلال طرح اللباب والمحافظة على القشور

اصلاح المملكة العائلية يا سادتي و يا سيداتي احرى بالنظر والاهتمام من اصلاح المملكة الشعبية العامة بل ان اصلاح تلك هو السبيل الوحيد لاصلاح هذه وكل مسعى تتخذونه غير هذا المسعى يذهب سدى فعليكم يا قادة الافكار الضرب على هذا الوتر ليتسنى لكم الوصول الى ما تريدون من اصلاح البلاد واسعاد اهلها وعليكم ايها السادة والسيدات ان تتعاونوا لابلاغ حالة العائلة الى الدرجة التي تلزمها من الارتقاء والانتظام حتى يتسنى لهذه الامة الانتظام في سلك الامم المتمدنة الراقية : سادتي انتم ملوك وسيداتي انتن ملكات في ممالك هذه العيال فعليكم وعليكن ان تتنازلوا عن عروش السلطة المطلقة وتجعلوا ممالككم دستورية شورية بالفعل لا بالاسم كما تنازل ميكادوا اليابان من تلقاء نفسه عن عرش سلطته الاستبدادية وقيد نفسه بقيود الشورى الحقيقية وقاد امته في طريق الاصلاح والتقدم

اما القانون الاساسي الذي يجب ان تسير عليه كل عائلة في حكمها الدستوري فهو مؤلف من المواد الآتية

اولاً على رب العائلة ان يعرف كل منها ما للاخر عليه من الحقوق ولا يبخسه شيئاً منها و بذلك يظل الوفاق سائداً بينهما والسكينة باسطة اجنحتها فوق منزلها فيذوقان طعم السعادة و يتمتعان بلذة الحياة الحقيقية و يعطيان اولادهما قدوة صالحة في التحاب والتوائق .

ثانياً عليها ان يستعملا الحكمة في معيشتهما و يقررا ميزانية لدخلها وخرجها و يتخذا الطرق اللازمة لصيانة مستقبلها ومستقبل اولادهما فلا ينفقا غرشاً بغير لزوم ولو ادى ذلك بالمرأة الى حرمان نفسها من لبس الثياب الفاخرة واتباع الموض الجديدة التي تتغير كل يوم لكون ضربات الموض والتقليد اصبحت اشر من الوباء وحرمان الرجل من بذل النفقات الطائلة على موارد اللهو وفي التهورات والمجتمعات العمومية وما شاكل ذلك من الامور .

ثالثاً عليهما ان يربيا اولادهما تربية لائقة بهما و يعوداهم الاعتماد على النفس ليشبوا رجالاً قادرين على خوض معامع هذه الحياة و يغرسا فيهم الجرأة الادبية ليقوى كل منهم على التصريح برأيه في المستقبل دون خشية ودون ان تؤثر عليه شيء من المؤثرات الخارجية وان يعلماهم الصدق والامانة و يحليانهم بحلى الفضائل التي تكون خير زخر لهم في مستقبلهم و بلقاح المعارف الضرورية التي تكون خير ارث يورثانهم اياه بعد مماتهم

رابعاً على ربي العائلة ان يحسنا احكام العلائق الودية الصادقة بين مملكتهما الصغيرة وسائر الممالك المحيطة بهما دون تفريط ولا افراط فينتخبا لهما من الاصدقاء من تحسن عشرته و يستند عليه عند الشدة و يتجانبا عن مصادقة ذوي الاخلاق الرديئة الشريرة والمبادي المنحطة اللذين ربما كانت مصادقتهم سبباً لخراب عائلتهما وتضعضع اركانها

خامساً ان يعتمدا في سياستهما الداخلية والخارجية لمملكتهما وضع الشيء في محله فلا يستعملا البخل موضع الجود ولا الحلم موضع الغضب اذ كما قال الشاعر

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى مضر كوضع السيف في موضع الندى

هذا هو القانون الاساسي والدستور الذي يليق بكل مملكة صغيرة اعتاده اساساً تبني عليه معاملاتها ومحوراً تدير حوله كل حركاتها

ومتى تم للعائلات عندنا الجري عليه و بطل الاستبداد بين افرادها وعرف كل منهم واجباته وحقوقه يحق لنا عندئذ ان نبشر نفوسنا بان بلادنا دخلت في دور الارتقاء الحقيقي وحازت الدستور الاجتماعي الوطيد الذي بدونه لا يحيا دستور ولا تثبت شورى واني اوكد لسادتي وسيداتي انه اذا تم العمل بهذا الدستور العائلي تم لوطننا الانقلاب الاجتماعي الذي لا يخشى بعده استبداد ولا يبقى خطر منه على الحرية